

ولعل ابن عبد السلام يكون بهذه القاعدة الأخيرة، قد أشار إلى مبدأ حصانة وحرمة السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين وهو مبدأ استقر عليه القانون الدولي المعاصر⁽¹⁾.

هذه بعض الخطوط العريضة فيما يتعلق في جهد الشيخ عز الدين في تطوير قواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية.

سابعاً: أعماله في التدريس والإفتاء والقضاء والخطابة:

1 - في التدريس: قام العز بن عبد السلام بالتدريس في مدارس دمشق ومساجدها، وهو أول عمل قام به العز رحمته الله وأول مدرسة عمل بها هي المدرسة العزيزية حيث كان للعز مجلس فيها يدرس فيه العلوم الشرعية، كما كان يدرس فيها الأمدي (ت 631هـ) واستمر العز في التدريس مع أستاذه الأمدي وبعده، كما درس في المدرسة الشبلية، ثم تولى التدريس في الزاوية الغزالية وهي مكان صغير، بجانب الجامع الأموي من جهة الغرب وسميت

(1) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (13/ 391).

بذلك نسبة إلى الإمام الغزالي (ت 505هـ)، كان يعتكف فيها، ثم استعملت للعبادة والتدريس والأذكار، وتولى العز التدريس فيها بعد وفاة شيخها جمال الدين الدولعي سنة (635هـ)⁽¹⁾، ومع علمه ونبوغه وذووع صيته، وبروزه على الأقران، حتى إنه كان مفتياً قبل هذا التاريخ، والتدريس مرحلة متقدمة على الإفتاء، فلا بد أن يكون العز قام بالتدريس قبل تولية الملك الكامل له في سنة (635هـ) وبعد هجرته إلى مصر ولاء السلطان التدريس في الصالحية (بالقاهرة) وكانت مدرسة كبيرة خصصت لتدريس المذاهب الأربعة، فأُسند تدريس المذهب الشافعي للإمام العز رحمته الله فبقي إلى أن توفي (660هـ) ولم يكتف بالتدريس فيها، بل عقد حلقات العلم في المساجد وقصده الطلاب من الآفاق، وتخرج عليه في هذه الفترة معظم تلامذته الذين بزوا الأقران كابن دقيق العيد، والدمياطي، وغيرهم ممن سبق ذكرهم، وقد عرض عليه الملك الظاهر بيبرس بعد بنائه المدرسة الظاهرية أن يتولى أمر التدريس فيها إضافة إلى تدريسه في الصالحية، فأبى وقال: إن معي تدريس

(1) طبقات السبكي (8/ 242) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين، ص:

الصالحية، فلا أضيّق على غيري، وسأله الملك أن يشترط في وقفها أن يكون التدريس لأولاده فقال: إن في هذا البلد من هو أحقّ منهم، فقال: لا بد أن يكون لهم فيها وظيفة بالشرط، ففكر وقال: إن كان لا بد فتكون الإمامة، فشرط لهم⁽¹⁾، وقد عرض عليه الظاهر بيبرس أيضاً أن يعين مناصبه لمن يريد من أولاده فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز⁽²⁾، وكان أحد تلاميذه فضرب مثلاً نادراً في الحرص على الدين والورع، وعدم إيشاره أولاده على مصلحة المسلمين، فأسند الأمر إلى أهله ومن هو أهله، وكان العز رحمته الله مجيداً في تدريسه، جاداً في عطائه، وقد أثنى أبو الحسن الشاذلي على مجلس العز بن عبد السلام فقال: ... ما على الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام⁽³⁾ .. وكان مهيباً وقوراً، مع حمن محاضرة وبشاشة، لا يهتم بمظهر ولا ملبس، فقد كان يلبس قبع لباد، ويحضر فيه المواكب

(1) طبقات الفقهاء، للأسنوي (2/ 197).

(2) فوات الوفيات (1/ 596).

(3) حسن المحاضرة (1/ 127) فتاوى عز الدين بن عبد السلام، ص:

السلطانية، وأحياناً يلبس العمامة دون تكلف أو تصنع⁽¹⁾، ويعطي درسه مترسلاً وهو أول من درس التفسير في حلقاته، كما درس الفقه والأصول وغيرها من العلوم الشرعية، وفاق أقرانه حتى قال ابن الحاجب أحد أقرانه: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي⁽²⁾.

2 - الإفتاء: لقد مارس الإمام العز الإفتاء بدون تعيين من ملك أو سلطان، بل إن هذا المنصب الرفيع لم يكن يخضع لمراسيم الملوك، وإنما هو مهمة يقوم بها العالم إذا رأى نفسه أهلاً لذلك، وقال العز رحمته في أيام محنته مع الملك الأشرف: أما الفتيا فإني كنت والله متبرماً منها وأكرهها وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، ولولا أنني أعتقد أن الله أوجبها عليّ لتعينها عليّ في هذا الزمان لما كنت تلوئت بها⁽³⁾، والآن قد عذرتني الحق، وسقط عني الوجوب وتخلصت ذمتي والله الحمد والمنة.

كان هذا الكلام قاله العز لمن جاء من طرف السلطان يبلغه بعزله عن الإفتاء، وزاد العز فقال لرسول السلطان:

(1) طبقات السبكي (8/ 214) فتاوى عز الدين بن عبد السلام، ص: 129.

(2) طبقات السبكي (8/ 214) المصدر نفسه، ص: 129.

(3) طبقات السبكي (8/ 237) المصدر نفسه، ص: 129.

يا غرز، من سعادتي لزومي لبיתי، وتفرغي لعبادة ربي
والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيته واشتغل بطاعة الله
تعالى وهذا تسليك من الحق، وهدية من الله - تعالى - إليَّ
أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان،
والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه
الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك، ونحن على
الفتوح، خذ هذه السجادة صلِّ عليها، فقبلها وقبلها،
وودعه وانصرف إلى السلطان، وذكر له ما جرى بينه وبينه
فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به؟ هذا رجل يرى
العقوبة نعمة اتركوه، بيننا وبينه الله⁽¹⁾. . . وبقي العز على
تلك الحال ثلاثة أيام، ثم إن الشيخ العلامة جمال الدين
الحصري شيخ الحنفية في زمانه ذهب إلى الأشرف فقال
له: إيش بينك وبين ابن عبد السلام؟ وهذا رجل لو كان
في الهند، أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن
يسعى في حلولة في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده
ويفتخر به على سائر الملوك. وكان لتدخل الشيخ جمال
الدين الحصري أثر في احترام وتقدير الشيخ العز حتى أن
السلطان قال: نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك

(1) العز بن عبد السلام حياته وآثاره ومنهجه، ص: 56.

الفارطة في حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء، وأرسل إلى الشيخ واسترضاه وطلب محالته ومخالته⁽¹⁾، فكان بعد ذلك يأخذ بفتواه ومشورته، وقد طلبه في مرض موته كما ذكرنا وسأله محالته ونصحه، فنصحه العز بأن يحول عسكره الذين استعدوا لقتال أخيه الملك الكامل حاكم مصر إلى جهة العدو المشترك التتار، وكانوا قد ظهروا في شرق بلاد الإسلام في ذلك الوقت، فأمر الأشرف بذلك، كما نصحه بإبطال المنكرات التي يرتكبها نوابه من الزنا وإدمان الخمر وتمكيس المسلمين، وظلم الناس، فأمر الأشرف بإبطال ذلك، كما باشر العز بنفسه تبطيل بعضها، وبعد هذه النصيحة قال الأشرف: جزاك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنه وكرمه، وأطلق له ألف دينار مصرية فردها عليه، وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا⁽²⁾، ثم لم يمض أخوه الصالح إسماعيل تبطيل المنكرات وكان نائبه يومئذ، ثم استقل بالملك بعد موته ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى قدم أخوه الملك الكامل من الديار المصرية بجيوشه إلى دمشق

(1) طبقات السبكي (8/ 218) العز بن عبد السلام، للوهبي، ص: 56.

(2) العز بن عبد السلام، للوهبي، ص: 57، طبقات السبكي (8/ 241).

وحاصر أخاه إسماعيل، ثم اصطلح معه، وأكرم الكامل العز غاية الإكرام، وقد اجتمع مع العز بحضور أخيه إسماعيل، فقال الكامل: إن هذا له غرام برمي البندق، فهل يجوز له ذلك؟ فقال الشيخ: بل يحرم عليه، فإن الرسول ﷺ نهى عنه، وقال: «إنه يفتقأ العين ويكسر العظم»⁽¹⁾.

فيلاحظ أن ملوك بني أيوب كانوا يعززون الشيخ ويكرمونه غاية الإكرام ويحبون مجالسته والاستماع إلى نصحه، والعمل بمشورته، بما فيه خير الإسلام والمسلمين، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ولا يهابهم ولا يجاملهم⁽²⁾. . . وقد اشتهر العز بالإفتاء حتى أن الناس كانت ترد عليه من البلاد لتستفتيه، كما أن شهرته بذلك قد وصلت إلى مصر قبل أن يذهب إليها بدليل أنه لما ذهب إليها سنة (639هـ) امتنع مفتيها الحافظ المنذري من الفتيا وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين عليه⁽³⁾، وقد بادله العز نفس الإكرام والتقدير فامتنع عن التحديث لوجود حافظ عصره المنذري،

(1) العز بن عبد السلام، ص: 57، نقلاً عن: طبقات البكي.

(2) العز بن عبد السلام، للوهبي، ص: 57.

(3) الشيخ العز بن عبد السلام حياته وآثاره، ص: 57.

وكان كل منهما يجلب الآخر ويحضر دروسه⁽¹⁾.. وكان العز حريصاً كل الحرص في فتاويه يتحرى الدقة فيها، حتى أنه مرّة أفتى بشيء ثم تبين أنه أخطأ فنأدى في الأسواق في مصر والقاهرة على نفسه: أنه من أفتاه فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ⁽²⁾، وهذا يدل على شدة ورعه ومراقبته لله وخشيته منه، وحرصه الشديد أن لا يضل أحد من عباد الله بسببه، ولم يأبه لمن سيوصمه بالجهل وعدم المعرفة، لأنه آثر الآخرة على الدنيا، وثواب الله على مدح الناس، لذلك أكرمه الله سبحانه، وجعل له القبول في قلوب عباده، فقصده بالفتوى من سائر البلاد⁽³⁾، وسارت فتاويه مع الركبان وتحدث الناس بها وعملوا بها من الخلفاء والملوك والسلاطين إلى العامة والضعفاء والمساكين، وترك لنا تراثاً في الفتاوى، سميت بعضها بالفتاوى المصرية والأخرى بالفتاوى الموصلية، وقد قال عنه ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب، وقصد بالفتوى سائر الآفاق، ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب، بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى إليه اجتهاده⁽⁴⁾.

(1) فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ص: 129.

(2) فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ص: 133.

(3) المصدر نفسه، ص: 123 ، 130.

(4) البداية والنهاية (17/442).

3 - القضاء: ذكر ابن البكي عن رسالة ولد العز
 الشيخ عبد اللطيف في أخبار والده، أن الملك الكامل لما
 حاصر دمشق واستولى عليها من أخيه الملك الصالح
 إسماعيل ولى والده الشيخ تدریس زاوية الغزالي بجامع
 دمشق، وذکر بها الناس، ثم ولاه قضاء دمشق بعدما اشترط
 عليه الشيخ شروطاً كثيرة ودخل في شروطه، ثم عينه للرسالة
 إلى الخلافة المعظمة، ثم اختلته المنية رحمته الله في 22 رجب
 سنة (635هـ)، فكانت مدة ملكه دمشق شهرين ونصف
 تقريباً⁽¹⁾، وذكر الداودي: أن الكامل ولى الشيخ تدریس
 الزاوية الغزالية بجامع بني أمية وعزم على ولايته قضاء
 دمشق، وإرساله في الرسالة إلى بغداد، فمات دون إمضاء
 ذلك بدمشق⁽²⁾، فعبارة الداودي تفيد أن الشيخ لم يتول
 منصب القضاء، ولم يقم بالرسالة، لأن الكامل مات قبل
 تنفيذ ذلك الأمر، بينما عبارة ولده تخالف ذلك حيث أفادت
 أنه تولى القضاء، وليست قاطعة بذلك، فهي محتملة أنه
 عينه، ولم يباشر حيث مات الكامل بعد شهرين ونصف
 وجاء بعده أخوه الملك إسماعيل فلم ينفذ ذلك وهذا

(1) ذيل الروضتين، لأبي شامة، ص: 166، الشيخ العز بن عبد
 السلام، للوهبي، ص: 58.

(2) العز بن عبد السلام، للوهبي، ص: 58.

الاحتمال هو الراجح ويقويه نص عبارة الداودي، ولو أن الدكتور رضوان اطلع على هذا النص لما قال: ولعل عز الدين بقي في منصب قضاء دمشق برهة من الزمن خلال هذه الفترة القصيرة من حكم الكامل لدمشق، إذ جاء بعده أخوه الصالح إسماعيل، ولم يكن يعجب بالشيخ، ولا يرضى أن يبقيه في القضاء، وقد حرم عليه اللعب بالبندق ولعل قصر فترة بقائه بهذا المنصب جعل أصحاب التراجم، وابن طولون لا يذكرونه بين قضاة دمشق⁽¹⁾، ولما هاجر إلى مصر أسند إليه الملك نجم الدين أيوب الخطابة والقضاء حيث توفي قاضي قضاء مصر شرف الدين بن عين الدولة سنة (639هـ)، فولى السلطان العز القضاء مكانه وحدد له قضاء مصر والصعيد، وأبقى قضاء القاهرة والوجه البحري مع قاضي غيره، كما فوض إليه مع القضاء الإشراف على عمارة المساجد المهجورة في مصر والقاهرة، وسار بالعدل والإنصاف ورفع الجور والحيثف مهما كلفه الثمن⁽²⁾.

4 - الخطابة: لما تولى الشيخ عز الدين الخطابة بدمشق أزال كثيراً من البدع التي كان يفعلها الخطباء من دق السيف

(1) العز بن عبد السلام، للوهبي، ص: 58.

(2) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 127.

على المنبر، ولبس السواد، والسجع المتكلف، والثناء على الملوك بما ليس فيهم، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاتي الرغائب والنصف من شعبان، وقد وقع بينه وبين ابن الصلاح (ت 643هـ) خلاف ووحشة بسبب صلاة الرغائب لأنه كان يؤيدها، واستمر العز في خطبه بالجامع الأموي سنة ونيافاً حتى عزله الصالح إسماعيل بسبب إنكاره عليه تحالفه مع الصليبيين سنة (638هـ)⁽¹⁾. ولما هاجر إلى مصر استقبله صاحبها نجم الدين أيوب أعظم استقبال، وقربه وأدناه وأكرمه وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص، وقد قام بمهمته أعظم قيام، وأدى رسالة المسجد التي عاش من أجلها على أحسن وجه، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صادقاً بالحق، منكرراً للباطل، وكان حريصاً أن لا يعزل نفسه عن الخطابة، كما فعل في عزل نفسه عن القضاء، لأنه لا يخشى الحيف وظلم الناس في الخطابة خلافاً للقضاء، وكان الملك نجم الدين يخشى من سلطة لسانه وجرأته لذلك سارع إلى عزله عن الخطابة، عندما عزل نفسه عن القضاء بعد حادثة إسقاط عدالة وزيره معين الدين ابن شيخ الشيوخ⁽²⁾، وتولى

(1) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 125.

(2) المصدر نفسه، ص: 127.

الخطابة بعده المجد الأحميمي⁽¹⁾، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

ثامناً: أهم صفات العز بن عبد السلام:

تميزت شخصية الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمجموعة من الصفات من أهمها:

1 - الشجاعة: من الصفات التي لازمت العز بن عبد السلام طيلة حياته: الشجاعة في الحق، ذلك لأنه كان مع الحق يدور حيث دار، وما قصته مع نائب السلطان عندما عزم على بيع المماليك إلا دليل ساطع على شجاعته وجراته وأنه لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى سلطاناً، ولا يهاب الموت في سبيل الله، وقد ذكر ابن البكي: أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة معتمة وهو في بيت عالم في بستان متطرف عن البساتين وأحاطوا بالبيت، فخاف أهله خوفاً شديداً، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب البيت، وقال: أهلاً بضيوفنا، وأجلسهم في مقعد حسن، وأخرج لهم ضيافة حسنة فتناولوها وطلبوا منه الدعاء، إذ كان مهيباً له موقع حسن في القلوب فهابوه،

(1) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 127.